

الأوضاع الاجتماعية والثقافية لدمشق بين سنتي 1650 – 1750م.

the social and cultural conditions of Damascus between the years
1650-1750د. إبراهيم بحيات، جامعة ابن طفيل - المغرب. bouhayatibrahim@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/08/07

تاريخ القبول: 2021/07/05

تاريخ الاستلام: 2020/11/01

الملخص:

تلقي هذه المقالة نظرة عامة على الأوضاع الاجتماعية والثقافية لدمشق بين سنتي 1650 – 1750"، وبذلك فهي تأتي ضمن مجالات اهتمامنا بكل من المشرق العربي والمغرب الكبير بما يشمله من روابط ثقافية واجتماعية وسياسية متشابهة في كثير من الأحيان، وقد حاولنا في هذه المقالة إبراز جزء من هذا التاريخ، الذي بدا لنا أنه ما يزال في حاجة إلى التنقيب والدراسة خصوصا خلال الفترة المحددة لهذه المساهمة، وهي فترة وسمت عموما بتطورات جذرية مسّت مختلف مناحي الحياة بالمجال المدروس، وقد ركزنا على أوضاع المجتمع بدمشق الشام ونمط عيشهم، وعلى النواحي الفكرية، وكذا نظامها الإداري باعتبارها إيالة تابعة للدولة العثمانية، وخلصنا في نهاية هذه المقالة إلى مدى تأثير مختلف الانتاجات على المستويين الفكري والقياسي، خصوصا وأن دمشق كانت تعتبر مركزا للعلم والعلماء.

كلمات مفتاحية: دمشق؛ المشرق العربي؛ المغرب الكبير؛ الاجتماع.**Abstract:**

This article sheds light on a general overview of the social and cultural conditions of Damascus between the years 1650 and 1750. Consequently, it comes within the areas of our interest in both the Arab East and the Morocco, which has similar cultural, social and political ties. Therefore, we tried in this article to highlight a part of this date. This seemed to us that it was still in need of exploration and study, especially during the specified period for this contribution. Generally speaking, this period was marked by radical developments that affected various aspects of life. Moreover; we gave importance to the conditions of the community in Damascus and their method of life. Most importantly, we focused on the intellectual aspects, as well as its administrative system. For example, Ayala belongs to the Ottoman Empire. To conclude, this article deals with the extent that the various productions were affected on the intellectual and cultural levels.

Keywords: Damascus; The Arab East; The Maghreb; the meeting; the culture.

مقدمة:

حظيت بلاد الشام عموماً ودمشق خصوصاً، بأعمال ودراسات تاريخية نوعية لا يمكن إنكارها من قبيل: الدراسة التي أنجزتها الباحثة إيرينا سميليا نسكايا، تحت عنوان البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ودراسة شيلشر ليندا، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ودراسة لوقا اسكندر، الحركة الأدبية في دمشق 1800-1918، والعمل الذي أنجزه المنجد صلاح الدين، تحت عنوان ولاة دمشق في العهد العثماني، سلطت الضوء على جملة من أشكال الحياة الثقافية والاجتماعية بدمشق زمن أفول القوة العثمانية.

لكن ذلك لم يحل دون اهتمامنا بالفترة الممتدة من أواسط القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر بحكم اشتغالنا على مخطوط المتصوف البكري الصديقي الخلوتي الذي عاصر هذه المرحلة، وناقش في مخطوطاته الغزيرة جملة من القضايا الفكرية والاجتماعية بالشام، والتي لا تختلف كثيراً عن نظيرتها بالمغرب الكبير، ليتبين لنا ثراء التراث التاريخي والفكري للمرحلة، باعتبارها فترة جد مهمة من التاريخ الإسلامي عموماً ومنطقة الشام على وجه الخصوص، حيث تغيرت موازين القوى لصالح الدول الأوروبية على حساب الإمبراطورية العثمانية، وهو ما ألقى بضلاله على الأوضاع الاجتماعية والثقافية بظهور زعامات وأسر محلية تعاضمت قوتها في إطار الصراع على السلطة، وتنازلت الطوائف المذهبية والطرق الصوفية التي حاول البعض استغلال أفكارها خدمة لأجندات سياسية، ما طرح أسئلة وقضايا جديدة لا يزال العقل العربي يبحث لها عن إجابات إلى اليوم، أو بالأحرى لم يستوعب التطور الذي وصلت إليه الدول الغربية عموماً.

وفي هذا السياق يأتي إنجازنا لهذه المساهمة، بغية إبراز كثير من المعارف الفكرية والتاريخية، المتعلقة بدول وممالك العالم الإسلامي قاطبة، خدمة للمعرفة العلمية، التي تظل رغم ما توصلنا إليه نسبياً، وسننكب في هذه المساهمة على تقديم بعض الجوانب من التاريخ الاجتماعي والثقافي لدمشق الشام، باعتبارها كانت نبراساً ثقافياً في المنطقة، استنارت من علومها عدة شعوب، إلى أن وصل الحال بالعثمانيين إلى تسميتها بمجموعة من الصفات الدينية، منها على سبيل المثال "شام شريف" و"بستان الكعبة" وغير ذلك من التسميات¹. وعليه، نرى أنه لا بد من الإجابة على مجموعة من الأسئلة في هذه المساهمة، من قبيل:

- ما طبيعة الأوضاع التي سادت في بلاد الشام عموماً ودمشق خصوصاً؟
- وكيف كانت أحوال البلاد من الناحية الفكرية في المرحلة المدروسة؟
- وما هي نتائج الاضطرابات التي عرفت دمشق الشام؟
- كيف كان نظام الإيالات العثمانية؟
- ومن هم أشهر ولاة دمشق في المرحلة المدروسة؟
- وهل تأثر الإنتاج الثقافي والفكري لدمشق باعتبارها عاصمة من عواصم العلم؟ وما نتائج ذلك؟.

1 إطلالة عن الأوضاع العامة للمجال المدروس

تجمع الكثير من المصادر التاريخية على أن قيام الدولة العثمانية جاء على حساب ما تبقى من الدولة البيزنطية، ولذلك تأثر نظامها بأساليب النظام البيزنطي، كما أن العثمانيين هم الذين استطاعوا أن يجمعوا معظم

المشرق الإسلامي تحت حكمهم في حقبة تاريخية طويلة، "تعتبر الدولة العثمانية الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية"²، ويبدو أنه لما اشتد عودها فكرت في تطوير قدراتها عن طريق تقوية تنظيماتها المجالية سواء على المستوى السياسي، أو الاقتصادي والاجتماعي والفكري باعتبارهم من الدعامات الأساسية لنهوض المجتمعات.

واتجهت سياسة الباب العالي بذلك إلى التوسع على حساب الجيران، درءاً لحدودها الجيوسياسية والتصدي لأعدائها، الخارجين عن طاعتها والرافضين لسلطتها المركزية³. وتم العمل على إحداث آليات جديدة بغية تحسين معاملة الأفراد داخل المجتمع، وبالأخص الذين لا يدينون بالإسلام⁴، وعملت على الحد من تجاوزات الانكشاريين⁵، الذين تحولوا من رجال للنصرة والولاء، إلى رجال للتخريب والعبث بمصالح المجتمع خصوصاً ببلاد الشام.

كان للتحويلات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا خلال المرحلة المدروسة أبلغ الأثر على دمشق، حيث ازدادت أهميتها الاستراتيجية وأضحت تتحكم في شبكة التجارة، نظراً لما تحتله من مكانة اقتصادية متميزة محلياً وإقليمياً وعالمياً، ذلك أنها توجد في مفترق مسالك الصحراء وآسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا، وهو ما زاد من تعزيز روابطها السياسية والثقافية والدينية، خصوصاً أنها كانت أهم مركز يتجمع فيه السكان سنوياً استعداداً للتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، وهو ما دفع العثمانيين إلى اتخاذها عاصمة لإحدى ولاياتهم مع مطلع القرن 18م، وعندئذ أضحت دمشق تحظى بأهمية سياسية مفضلة من طرف الإمبراطورية العثمانية⁶.

ومن ثم اعتاد الساسة العثمانيون على تعيين أمراء من ذوي أصول دمشقية يعهد إليهم بتنظيم الحج منذ سنة 1118هـ/ 1707م، وكانوا يحرصون على أن يكون حاضراً مع الحجاج إما أمير الجردة أو والي صيدا أو والي طرابلس من أجل تعزيز التعاضد والدعم بينهم، بمعنى توفير الظروف السياسية الملائمة⁷.

كما عرفت بلاد دمشق من الناحية السياسية أحداثاً تاريخية متباينة، منذ أن تولى حمزة باشا أمر هذا القطر سنة 1099هـ/ 1688م، حيث وضع لنفسه خطة صارمة إزاء رعيته، ولم يجد هذا الأخير سبيلاً غير الوشاية بالولاء والأمراء إلى سلطان الدولة العلية العثمانية نظراً لتعنّتهم أمام أوامره⁸، وبحلول سنة 1100هـ 1689م انتقلت زمام الأمور إلى أحمد باشا الذي لم تدم مدة حكمه أكثر من ثمانية أيام حتى تم عزله، وتولى الأمر بعده والي جديد يدعى مصطفى باشا "السلحدار" العادل الكامل سنة 1101هـ/ 1689م....، وفي سنة 1103هـ 1691م انتقل حكم دمشق إلى إبراهيم بيك أخ مصطفى باشا الفراري⁹.

وفي سنة 1107هـ/ 1696م أصبحت دمشق تحت إمرة عثمان باشا السلحدار الذي أُوخذ عنه أنه زاد من تأزيم أوضاع البلاد أكثر مما كانت عليه، فثار عليه بعض العلماء وشيوخ الطرق الصوفية وغيرهم، ونبغوا جراً قيامهم هذا بنعوت عديدة من قبيل: فرق الملاحدة الجديدة والفرق الضالة عن الطريق القويم.... وجراء ذلك أرسل إليهم عثمان باشا يهددهم ويشتكهم للدولة العلية العثمانية، فأمر السلطان بنفهم إلى طرابلس، ولم يتمكنوا من الحصول على العفو السلطاني إلا بعد مدة من الزمن.

وبحلول سنة 1135هـ/ 1723م حكم دمشق إسماعيل أفندي، وفي عهده وقعت أحداث كبرى، وكان الظلم على أشده، وصارت جل بلاد الشام مستلبة على مستوى الفكر والحكم، وحدثت فتنة عظيمة بين الانكشارية وأوجاق القيقول¹⁰، وبذلك أقفلت أبواب دمشق لمدة ثلاث أيام كما عبر عن ذلك صاحب الخطط¹¹، وجراء هذه الأحداث الأليمة ظهرت أسرة آل العظم الذين قال في حقهم الخوري ميخائيل بريك: "هم أولاد العرب وصلوا إلى حكم بلاد الشام منذ سنة 1132هـ/ 1720، وذلك لاعتمادهم نهج اللين والتسامح في قضائهم وحكمهم"¹²، وأصبحوا بذلك حكاما للشام¹³.

وعموما، يظهر أن جل الولاة الذين حكموا إيالة دمشق خلال المرحلة المدروسة كانوا لا يكملون السنة، ومنهم من لم تدم مدة حكمه سوى أيام معدودة. وظهر بالملحوس، أن الأوضاع الاجتماعية كانت تتأثر بشكل مباشر بالأوضاع السياسية، وبعد تراجع النظام الإقطاعي العثماني في القرن السابع عشر، ترسخت القوى الإقطاعية المحلية، بعدما أصبحت الحكومة المركزية عاجزة إلى حد ما عن كبح النفوذ السياسي المحلي الذي تمتعت به القوات شبه العسكرية، وخاصة العناصر المحلية، مما اضطرها للاعتماد عليهم في أعمال الأمن، وتأمين قوافل الحجاج وحمايتهم¹⁴.

تظهر بعض الدراسات أن الحالة الفكرية والثقافية لبلاد الشام عموما والقطر الدمشقي خصوصا الذي هو مجال مساهمتنا كان متشابكا، وملينا بالمعتقدات والخرافات الممزوجة بما هو إيديولوجي، والتي تقترب إن صح التعبير من الاعتقادات الأسطورية، وما زاد الطين بلة هو بروز طوائف وفرق جديدة، لها مناهج خاصة في الحياة التعبدية والخلوات¹⁵.

وقد عرف القطر الشامي الدمشقي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر عدة اضطرابات إدارية واجتماعية وفكرية، وصلت في بعض الحالات إلى حد التصفية الجسدية سواء كان ذلك بسبب فكر تجديدي أو ظهور طرق جديدة. وبالتالي طغت بالمنطقة الخلافات الإيديولوجية والثقافية، والانتصار لفريق على حساب آخر بدون وجه حق. ويستفاد من أحد الدارسين أن الأوضاع بالمجال المدروس كانت مائجة في بحر من الدماء، جراء الفورات الداخلية، ولعل أهم العوامل المسببة لهذا الحراك والغليان الاجتماعي، تكمن في سوء معاملة الحكام لعامة الناس؛ لأن شغلهم الشاغل كان هو الانفراد بالسياسة والاهتمام بالكراسي والحكم¹⁶.

وفي هذا الصدد ذهب باحث آخر للمنطقة إلى أنه في كثير من الأحيان، أضحت المدن السورية مسرحا بارزا للثورات والتطرف، حيث كانت توقد النار غير ما مرة بدمشق وحلب وغيرهما، ولا تهدأ فتتهم وثوراتهم إلا بعد تدخل الولاة الذين هم من كبار الأعيان. ويلاحظ أن الهدوء عندهم كان لا يدوم إلا فترة وجيزة حتى تعود الفوضى على نحو ما كانت عليه من ذي قبل¹⁷.

وزكت المستشرقة نسكايا هذا الطرح حيث قامت بدورها بدراسة المنطقة، ونقلت عن البديري في إحدى رواياته: أنه في "سنة 1743م أغلقت أهل الشام دكاكينها، وقامت الأشراف على بيت فتحي أفندي الدفتردار، وفي سنة 1746م بينما الناس قبل الظهر في أشغالهم وإذا بضجة عظيمة وضرب بارود فقيل ما الخبر، قال ملكة الدالاتية

القلعة، فسكرت البلد وزاد الفزع في كل أحد، ولما بلغ الخبر الانكشارية قاموا على قدم و ساق، وبعد أن سحقت معارضة الانكشارية في الميدان على يد الوالي أسعد باشا، ساءت أحوال أهل الشام وأصبح الناس ساهرين ليلاً ونهاراً، وكان الشعب في اضطراب وحزن، وفي حالة الهلع كان الناس يهربون تاركين حوانيتهم وبعد استتباب الأمن في المدينة تلقى أسعد باشا بشارة من الباب العالي فأمر بإطلاق المدفعية احتفالاً، وظن أهل دمشق أن اشتباكات اندلعت بين الجنود فأقفلت المدينة، وأمر الباشا من جديد بإقامة احتفال بالألعاب النارية، فهدأ روع الناس وفتحوا حوانيتهم¹⁸.

وهذا يظهر بشكل جلي، فشل المسؤولين في الإصلاحات التي حاولوا بلورتها لتخليص فئات المجتمع من بعض الإكراهات، التي تضاربت على ما بدا لنا مع أصحاب المصالح والنفوذ، فكانت النتيجة أن قابلوها بالرفض، بذريعة أنها مستوحاة من الكفار "الأوربيين"¹⁹، وأضحى من الضروري أن يقف الفكر العربي على هذه المسألة التي يعيشها، ويتخذ موقفاً واضحاً من ذلك، يؤدي إلى الدفاع عن الحياة الاجتماعية أمام الموجات الاستعمارية الكاسحة للفكر والأرض، مع الحرص على ثقافة وهوية المجتمع في مفهومه التقليدي كي لا ينفجر²⁰.

ويعتبر النصف الأول من القرن 18 فترة مهمة طبعها بعض الإصلاحات، حيث تمت تولية ولاية أكفاء وقُفوا في إعادة هيكلة التنظيم الإداري²¹، ومع ذلك ظلت هذه المحاولات ناقصة، بدليل أن بعض الولايات ما زالت تعتمد نظام الغلبة للأقوى، وفي هذا الصدد بين محمد كرو أن ما كان طاغياً هو سوء التسيير الإداري، والخراب وهتك أعراض الناس وتقتيلهم، كما أن الولاية نسق واحد؛ لأنهم نسخة عصرهم إذ كان الناس كلما اشتد عليهم الظلم في مكان ما يهجرونه، إلى موطن آخر يتغيون فيه أقل مغرمة ومظلمة، وإذا كان الولاية في الماضي يرهقون المجتمع أو الرعاية باسم تشييد العمران، فإن هذه المرحلة أقل ما يمكن أن يقال عنها هو تخريب الموجود²².

إن المرحلة الممتدة من أوسط القرن 17 حتى أوسط القرن 18 تقدم صورة واضحة عن واقع حال حقبة تاريخية مهمة من تاريخ الإنسانية، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقوى وتزيد تفنناً في تقنياتها وحدائتها، كان الشرق العربي يعيش أسوأ الظروف سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وهذا ما نستشفه من خلال بعض الدراسات التي أرخت للنسق الاجتماعي في آسيا الصغرى، وحري بنا القول أن القطر الدمشقي تأثر تأثيراً مباشراً بما كان يحدث في الدولة المركزية.

2. نظام الإيالات العثمانية:

إن نظام الولايات العثمانية كان يستند بالأساس على التكليف من حيث المبدأ، إذ يتم تعيين الوالي أو الباشا في منصبه مع تزويده بأوامر سلطانية، مع دعمه مادياً لإنجاح مخططه، وكان النظام الإداري يتميز بنوع من المرونة والطواعية والغموض أحياناً، وهو ما جعله عرضة للاضطرابات في عدة ولايات، فعلى سبيل المثال: خلال عهدة الولاية لأحمد باشا على إيالة دمشق - والتي لم تدم أكثر من ثمانية أيام سنة 1100هـ/1689م- كانت "المظلمة العظيمة" التي لم يسمع بمثلها من قبل في الإيالات التابعة للسلطنة العثمانية¹.

ومن بين الأنظمة الأخرى التي اتبعها السلاطين العثمانيين في حق الإيالات ببلاد الشام هو العقاب سواء بالسجن أو النفي... نموذج السلطان الغازي أحمد الثاني الذي عاقب أعيان دمشق نظراً لما بدر منهم من سوء معاملة الوالي حمزة باشا سنة 1103هـ/1692م²

3. بعض ولاية دمشق

بدا لنا من خلال المصادر التي حاولنا سبر أغوارها على أن المنطقة المدروسة كانت تعرف بين الفينة والأخرى نوع من الهدوء، وبذلك فالعثمانيين سمحوا للأسر الدمشقية بممارسة أنشطتهم السياسية والفكرية في حدود، فكان منها من تولى القضاء مثل: خليل أسعد البكري بالقسطنطينية، وهي مرتبة لم يبلغها أي عربي من قبل، وقد كان هذا الأخير فقيهاً عالماً بارعاً في أمور السياسة ومنضراً اجتماعياً؛ لذلك نلاحظ أنه نفي جراً خوضه في الأمور السياسية³.

ويمكن القول، أن أسرة البكري كان لها دور بارز في التحرر من العبودية الفكرية والسيكولوجية خلال القرنين 17-18 الميلاديين؛ لأنه غالباً ما كان أهل دمشق يعتمدون على هذه الأسرة فيما يخص الإفتاء. وظهرت في نفس المرحلة أسرة آل العظم المعروفون بأولاد العرب، والتي كان لها باع كبير في حكم بلاد الشام عموماً، فمع بدايات القرن الثامن عشر، تولى أحد رجالاتهم وهو إسماعيل باشا العظم الإيالة بتعيين مباشر من المركز، غير أن بعض المؤرخين يرون غير ذلك فقالوا إن ناصيف باشا كان أول حاكم من أسرة آل العظم على دمشق، وقيل في الرملة سنة 1130هـ/1717⁴، وفي سنة 1147هـ/1735م انتقل الحكم إلى أسعد باشا العظم، الذي صارت البلاد في عهده أكثر شوكة بدليل أن جل الأقاليم الشامية أصبحت تحت سيادته⁵.

وعموماً فالعظم استفادوا من الثورات التي قادها آل البكري المؤيدين للنزعة المحلية، فيما بعد على مدى عقود من الزمن، بيد أن العثمانيين كانوا على قدر كبير في احترام آل العظم، وكانوا يولونهم تقديراً خاصاً، لإسهامهم في الحياة العلمية والدينية والسياسية، وكان منهم القضاة وكبار المفتين⁶.

وهذا لا يعني أن آل العظم هي الأسرة الوحيدة التي تولت الحكم بالمجال المدروس زهاء ثلاثة عقود من الزمن، بل إن أسراً أخرى كان لها باع طويل في حكم الإيالة، وفي نشر الفكر والتاريخ والأدب، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن أسرة المرادي التي استقرت مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر بدمشق، قد لقيت ترحيباً

كبيراً من لدن الجد الأكبر للأسرة البخارية النقشبندية، فمحمد مراد البخاري نشر طريقته النقشبندية⁷ في بلاد الشام وغيرها.

4. الإنتاج الفكري لأهل دمشق

يبدو من خلال ما طلعنا عليه من مواد مصدريّة أن الإنتاج والفكري وطرق التعبد بالمرحلة المدروسة كان يتأثر بشكل مباشر بالأحداث السياسية الداخلية، وبأنماط الاجتماعية والدينية المحلية، ونحن نعلم أن هذه المرحلة بالذات عرفت دخول الطباعة إلى حلب، وبعد ذلك انتقلت لدمشق سنة 1118هـ/ 1706، إذ كان لظهورها دور مهم في نماء المجتمع والحفاظ على التراث الثقافي⁸.

وكان من النتائج التي تم تحقيقها بظهور الطباعة العربية إصدار قرار من السلطنة العليا يزكي طباعة المؤلفات التركية والعربية وغيرها. وبذلك أضى الدمشقيون في شخص كتاب علماء العرب، يطالبون باسم الأمة العربية والوحدة العربية من سلطنة آل عثمان سنة 1150هـ/ 1738م، بإنصافهم إسوة بباقي الفئات الاجتماعية جراء ما يعتريهم من ظلم وكبح لحرياتهم. ويظهر أن الإنتاج العلمي بما شمله من آداب وعادات وطرق صوفية، قد عرف مداً وجزراً، تارة كان يعرف الانفراج، وتارة أخرى كان يتعرض للتضييق، فعلى سبيل المثال تطورت بعض الطرق الصوفية كالنقشبندية والخلوتية⁹.

يعتبر النصف الأول من القرن السابع عشر بحق فترة انفراج فيما يخص حركة التفكير والتعبير، إذ فتح المجال أمام العلماء والزهاد من الطلبة للبحث بأفكارهم إلى من هم حولهم، وهذا في حد ذاته نوع من ارتقاء المجتمع نتيجة ما حصل من تغيير في العلاقات الاجتماعية. هذا فضلاً عن تضافر جهود مختلف الأجهزة القضائية والوزارية وغيرهما للعمل سوياً في الحفاظ على الانضباط الفعال، من أجل إصلاح التنظيم الإداري، وذلك بتعيين ولاية ذوي كفاءات عالية¹⁰. لكن هذه السياسة الإصلاحية لم تلق نجاحاً كبيراً بين كل أفراد المجتمع؛ لأن الإشكال كان أعمق من التنظيم والضبط، فالحاجة كانت ماسة للعمل الشمولي.

وعموماً فخير ما يزكي تطور الثقافة والفكر بدمشق خلال المرحلة المدروسة هو الطرح الذي ظهر مع نجم الدين الغزي في إشكاليته حول أسباب تأخر الأمة العربية الإسلامية، في كتابه "حسن التنبيه لما ورد في التشبه"، وأيضاً الشيخ عبد الغني النابلسي، إذ ألف ما يزيد عن ثلاثمائة كتاب¹¹.

كان للتربية والتعليم دور مهم في تطور الثقافة والفكر العربي، فلا يمكننا إغفال الدور الذي لعبته اللغة العربية في تطوير الهوية الثقافية، والحفاظ عليها من موجات التحديث والتغيير¹²، وكان التعليم في هذه الكتابات مجانياً، وفي حالات نادرة كان الفقيه يأخذ أجره رمزية من تلامذته، وكانت تعرف بـ"الخميسية".

برز إبان الحكم العثماني عدد من الأسر الدمشقية المعروفة كآل الكزبري والناقلي والمرادي وأبي الشامات وغيرهم، ممن أسهموا في رفد المكتبات وأغنوها بمختلف العلوم الفكرية التي ألقت في عصرهم أو قبلهم، وأدرك الأوربيون أهمية الكتب المخطوطة، فأوصوا ممثلهم ورؤساء الحملات الاستكشافية بشراء كل محتويات المكتبات بدمشق وخاصة المخطوطات، ونقلها إلى أوروبا، ونجدها اليوم محفوظة بمكتبات مدريد، وبرلين، وسان بطرسبورغ وغيرها، وهذا يبين بشكل جلي إتمام ما كان في السابق من نهج للتراث الثقافي الإسلامي، وقد احتضن الجامع الأموي بدمشق مدرسة ومكتبة زاهرة بأمهات الكتب وإليها يرجع الفضل في حفظ التراث العربي الإسلامي وصيانتته.¹³

خاتمة:

صفوة القول، إن إيالة دمشق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان لها دور ملموس في تطور الفكر والثقافية بكل أطيافها في العالم الإسلامي، رغم الدور السلبي للقوى الأوربية التي حاولت تحجيم انتشار الثقافة الإسلامية بالبلدان العربية والحداثة من المشرق إلى المغرب، وهو نفس الدور الذي لعبته السلطنة العثمانية التي عملت على منع تطور الثقافة والفكر الحريين الفينة والأخرى، حيث حاولت الحفاظ على الجمود الثقافي بمختلف الأقاليم التي كانت تابعة لها، إذ لم يحدث انفراج كبير إلا بمجي القرن الثامن عشر، بعدما ظهرت الإرهاصات الأولى للتيارات النهضة في العالم العربي، وبدأت المناداة بتدريس العربية وغيرها، وأصبح النقاش الفكري الحريستحوز شيئاً فشيئاً على العقل. وبرزت بعض الأسر الدمشقية المعروفة كآل الناقلي والمرادي والبكري والعظم وأبي الشامات وغيرهم، ممن حاولوا الإسهام في رفد المكتبات وعملوا جراً ذلك على إغنائها ببعض العلوم العصرية.

الهوامش:

- ¹ - محمد أحمد، الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني، ضمن مجلة دمشق المجلد 27، العدد 1-2، 2011، ص.3.
- ² - Toynbee, *The Ottoman Empires place in world history*, In *The Ottoman state and it's place in world history*, E.J Brill, Leiden, 1974, p.15.
- ³ - مصطفى أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، صص 106-108؛ ياغي إسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان الرياض، ط1، 1995، ص.77.
- ⁴ - مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام، منشورات الزهراء للإعلام العربي، القاهرة الطبعة الأولى، 1987، ص.361؛ عوض عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914، منشورات دار المعارف مصر. الطبعة الأولى، ص.11.
- ⁵ - الإنكشارية: تسمى بالعسكر "الجيش" الجديد أنشأها السلطان أروخان، وتقسم إلى كتائب، ويلاحظ أن تساهل الدولة معهم في أخريات عهدها جعلهم يستأثرون بالسلطة، ويسيطروا استعمالها غير مرة، وهذا عرضهم لعقوبات عديدة، وفي هذا الصدد تقول الباحثة نسكايا، "إن الحكومة أقدمت سنة 1741م على حل فيلقهم السلطاني وقضى عليهم السلطان محمود الثاني سنة 1826م، للتوسع أكثر حول هذه الفرقة العسكرية انظر الجزائري محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1972، ص.36؛ إيرينا اسميليا نسكايا، م.س، ص.225؛ الإسكندري عمرو وعمر حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، سنة 1996، ص.14؛ الصلابي علي محمد محمد، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى، 2001، ص.53؛ بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومثير البعلبكي، دار

- العلم للملايين بيروت ط 5، 1968، ص. 414؛ عوض عبد العزيز محمد، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914**، تقديم أحمد عزت عبد الكريم، منشورات دار المعارف مصر. الطبعة الأولى، 1969، ص. 13.
- ⁶ - شيلشرليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، م. س، صص. 17-39.
- ⁷ - عبود الصباغ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، تج عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزيمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص. 27.
- ⁸ - المنجد صلاح الدين، **ولاية دمشق في العهد العثماني**، تق كرد محمد علي، دمشق 1949، ص. 45؛ **خطط الشام**، ج 2، ص. 270.
- ⁹ - **ولاية دمشق في العهد العثماني**، م. س، صص. 46-47؛ **خطط الشام**، م. س، ص. 269.
- ¹⁰ - **القبول**: هم جند الدولة الذين كان يرسلهم السلطان إلى الولايات، كان تكوينهم من المشاة ومن الانكشارية "البرلية" أو المحلية، وهم من أبناء الشام وكانوا من الفرسان، وأخلط شتى من العساكر والمرتزة ممن استخدمهم ولاية دمشق وقت الحاجة كالمغاربة والأكراد وغيرهم. للاستزادة حولهم انظر الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914، م. س، ص. 139. **الحركة الأدبية في دمشق**، م. س، ص. 318.
- ¹¹ - **خطط الشام**، م. س، ص. 275.
- ¹² - قال الخوري ميخائيل بريك: سعي آل العظم بأولاد العرب، وصلوا إلى الحكم بدمشق الشام سنة 1720، معتمدين في كثير من الأحيان نهج التسامح في سلطتهم. للتوسع انظر محمد أحمد، "الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني"، ضمن **مجلة دمشق** المجلد 27، العدد 1-2، 2011، صص. 308-309.
- ¹³ - **ولاية دمشق**، م. س، ص. 62-68؛ **خطط الشام**، م. س، ص. 276-277.
- ¹⁴ - شيلشرليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، م. س، ص. 140.
- ¹⁵ - تعرف الخلوة عند الصوفية بتعاريف متعددة، ولكن كلها تصب في اتجاه واحد هو اعتزال الناس، وترك الاختلاط بهم، والانفراد بالنفس للتقرب إلى الله تعالى. للمزيد انظر كاشاني عبد الرزاق، **معجم اصطلاحات الصوفية**، تج د عبد العالي شاهين، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1992، ص. 178؛ الشعراني عبد الوهاب، **الجواهر المصنوع والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار**، تج، شريف مصطفى الحنفي، الناشر دار جوامع الكرم القاهرة، الطبعة الأولى، 2008، صص. 4-5.
- ¹⁶ - الجزائري محمد بن ميمون، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تحقيق محمد عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1972، ص. 15.
- ¹⁷ - مشاقفة ميخائيل، **تاريخ بلاد الشام في القرن التاسع عشر**، تحقيق سهيل زكار، الدراسات والترجمة دمشق - حلوبي، 2006، ص. 58.
- ¹⁸ - إيرينا سميليا نساكيا، **البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث**، 1989، م. س، صص. 229-230.
- ¹⁹ - محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تج إحسان حقي، دار النفائس بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص. 319؛ مصطفى أحمد عبد الرحيم، **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية، 1986، ص. 172.
- ²⁰ - لوقا اسكندر، **الحركة الأدبية في دمشق 1800-1918**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة خاصة، 2008، ص. 12.
- ²¹ - أيرام. لايبس، **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، ترجمة فاضل جتكر، الجزء الأول، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، 2011، صص 472-480.
- ²² - **خطط الشام**، ج 2، م. س، ص. 265.
- ¹ - المنجد صلاح الدين، **ولاية دمشق في العهد العثماني**، تق كرد محمد علي، دمشق 1949، ص. 45.
- ² - **خطط الشام**، م. س، ص. 270.
- ³ - شيلشرليندا، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، م. س، ص. 189.
- ⁴ - محمد أحمد، **الحياة الثقافية في دمشق في العهد العثماني**، م. س، ص. 308؛ **خطط الشام**، ج 2، م. س، صص. 275-276.
- ⁵ - عبود الصباغ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر**، تج عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزيمة، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص. 31؛ كرد محمد علي، **خِطَطُ الشام**، ج 1-2، الناشر مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، 1403 هـ 1983، ص. 277.
- ⁶ - منال سليم النخال، **الشعر في القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر هجري أغراضه- ظواهره- اتجاهاته- قضاياه**، الجامعة الإسلامية غزة الدراسات العليا، إشراف نبيل خالد أبو علي، **أطروحة مرقونة**، نوقشت سنة 2013، ص. 35.

⁷ - **الطريقة النقشبندية**: تضاربت آراء الباحثين حول نشأتها وعموما هي طريقة روحية عرفت منطلقاتها من آسيا، ظهرت كثورة صوفية ألغت كثيرا من تقاليد التصوف مثل: الذكر والخلوة والكرامات، وأزاحت بشكل خاص خرافة السلسلة الصوفية. وتعد طريقة النقشبندية من أكثر الطرق الصوفية انتشارا عبر العالم، إذ لها العديد من الفروع من بينها: المرادية والخالدية والجامعية. كان لها دور مهم في ثورة المسلمين في كل من التركستان الصينية، وتأثيرها الكثير من المشقيين، وبالتالي كانوا يستندون إلى فتوى أهلها للخروج على مضطهديهم في القرنين السابع والثامن عشر للميلاد. للتوسع بشكل أكبر حول هذه الطريقة الصوفية انظر مجموعة مؤلفين، موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة أجزاء، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط 1، 1998، ص. 9960؛ عبد العال بديعة محمد، **النقشبندية نشأتها وتطورها لدى الترك**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط 1، 2010، صص. 13-18؛ درنيقة محمد، **الطريقة النقشبندية وأعلامها**، مطبوعات بروس جرس، طرابلس، ط 1، 1987، ص. 55؛ دمشقية عبد الرحمن محمد سعيد، **الطريقة النقشبندية**، نشر موقع الفرقان، دون تاريخ، ص 9؛

Widad Kadi, *Islamic History and civilization, Studies and Texts*, volume 34 ;

⁸ - محمد أحمد، **الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 303.

⁹ - **الطريقة الخلوتية** : تنسب هذه الطريقة الصوفية إلى محمد بن أحمد كريم الدين الخلوتي، أحد أئمة خراسان في القرن العاشر الهجري، كان من اتباع الطريقة السهروردية واستقل بطريقته بعد ذلك، عرفت بذلك انتشارا واسعا بين العلماء، وكان ممن اعتنقها بعض شيوخ الجامع الأزهر، ومعلوم أيضا أن أتباعها ليسوا من المؤمنين بوحدة الوجود فقط بل هم دعاة لها. للاستزادة انظر حول هذه الطريقة الصوفية يرجى العودة للمصادر التالية القصير أحمد بن عبد العزيز، **عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية**، مكتبة الرشد ناشرون الرياض، ط 1، 2003، ص 213؛ القادري محمد بن الطيب، **نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ج 3، تج. محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الطبعة الأولى، صص. 139-140؛ أبي الربيع سليمان، **الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة**، الجزء 2-1، تحقيق تيلاني عبد العزيز، مطبوعات أحمد بن سودة الثقافية، الطبعة الأولى، 1994، ص. 384؛ البكري مصطفى بن كمال الدين، **تسليية الأحزان وتصلية الأشجان**، كتاب ناشرون بيروت، دون تاريخ، ص. 5؛ اسماعيل العربي، **معجم الفرق والمذاهب الإسلامية**، منشورات دار الآفاق الجديدة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط 1، 1993، ص. 265؛ محمود عبد الرؤوف القاسم، **الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ**، دار الصحابة، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، صص 364-365؛ **المرادي سلك الدرر**، م. س، ص. 191؛

Chih Rachida, *Cheminement et Situation Actuelle Dun Ordre Mystique Réformateur: La Khalwatiyya en égypte (fin XV siècle à nos jours)*, in *Studia Islamica*, LXXXVIII, Maisonneuve - Larose, Paris, 1998, PP. 181-187

¹⁰ - **تاريخ المجتمعات الإسلامية**، م. س، صص. 479-480.

¹¹ - **الحياة الثقافية لدمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 308.

¹² - النعيمي الدمشقي عبد القادر بن محمد، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج 1، مطابع دار الكتب العلمية لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1990، ص. 7. وتسمى في المناطق الشمالية للمغرب ب"التحريرة"، وتكون غالبا في اليوم الذي يسبق السوق الأسبوعي بالمنطقة

¹³ - **الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني**، م. س، ص. 325.